



المؤتمر العام الخامس عشر لمؤسسة آل البيت  
الملكية للفكر الإسلامي  
18- 20 شوال 1431هـ الموافق 27- 29 أيلول/  
سبتمبر 2010م

## الحفاظ على البيئة من تعاليم القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور محمد المختار ولد

اباه

## الحفاظ على البيئة من تعاليم القرآن الكريم:

موضوع البيئة أصبح اليوم قضية الساعة، فاختلال توازن المنظومة الطبيعية وظاهرة الانحباس الحراري وما قد ينجم عن ذلك من تغييرات مناخية مثل نوبان الجليد في قطبي الأرض، وارتفاع مياه البحر، والتلوّث في الغلاف الجوي، كلّ هذا أيقظ ضمير المجتمع الأممي وحكومات الدول فبدأت تعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات لإنقاذ البشرية من الكوارث المهولة التي تحدث بالأرض.

ولم تك هذه الورقة تهدف إلى تقديم بحث علمي عن هذه المواضيع التي يرصدها العلماء، وإنما ترمي إلى التذكير ببعض المبادئ الإسلامية التي تحكم التعامل مع البيئة، مقتصرين في ذلك على الأمر بالإصلاح في الأرض، والتّحذير من الفساد فيها، واستعراض مكانة عناصر البيئة - وهي الأرض، والهواء، والماء، والطاقة، والنبات، والحيوان، والإنسان - في القرآن الكريم.

### 1. عهد استخلاف الإنسان في الأرض:

لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ، جَعَلَهُ خَلِيفَةً فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ وَاسْتَخْلَفَ أَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَسَخَّرَهَا لَهُمْ هِيَ وَمَا عَلَيْهَا وَمَا فِيهَا، فَجَعَلَهَا فِرَاشًا لِيَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَمَهَادًا لِيَتَّبِعُوا عَلَيْهَا، وَذُلُولًا لِيَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَلِيَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ لَتَقْوِيمِ حَيَاتِهِمْ، وَجَعَلَهَا كِفَاةً لِأَجْسَادِهِمْ قَبْلَ النَّشُورِ.

ثم نَبَّهَهُمْ أَنَّهُمْ خُلَفَاءُ فِيهَا فَقَطْ، وَأَنَّهَا مَلَكًا لَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ وَهُوَ يُوْرثُهَا مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى الْمَسْتَخْلَفِينَ أَنْ لَا يَعِيثُوا فِيهَا فِسَادًا، فَإِنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرٍ، وَوَضَعَ حُدُودًا لِاسْتِهْلَاكِ مَنَافِعِهَا، وَحَدَّرَهُمْ مِنَ الْإِسْرَافِ، وَأَكَّدَ

وعيده للمفسدين في الأرض والمسرفين الذين يتبعون أهواءهم [ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ] [المؤمنون: 71].

هذا هو العهد الذي تم بين خالق الأرض ورازق البشر، وبين الأنام المستخلفين فيها.

فلهم أن يستمتعوا بخيراتها، مما تنبت من ثمار، وما تتضمن من معادن وكنوز، وعليهم أن يراعوا التوازن بين الحاجة والمتاح، ولا يتعدوا الحدود التي وضعها خالق الأرض ومالكها وملئها.

والأخطار التي تهدد كوكبنا اليوم جاءت نتيجة لعدم احترام مقتضيات هذا العهد، وتعدّي الحدود في استعمال موارد الأرض، واستنزاف خيراتها بدون رشاد أو حساب.

## 2. تأكيد الأمر بالإصلاح والنهي عن الفساد:

المحافظة على سلامة البيئة من أهمّ مكونات العمل الصّالح الذي يرفعه الله إليه، وأكّد الأمر به سبحانه في كتابه العزيز، فبدأ بخطاب الرّسل الذين جعلهم قدوة لأممهم، فقال عزّ من قائل [ يَتَأْتِيَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ] [المؤمنون: 51]. ووعده بالحياة الطيّبة المؤمنين الذين يعملون الصّالحات، فقال جلّ وعلا [ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ] [النحل: 97]، والحياة الطيّبة هي الصّحة والسّلامة في الدّنيا، والسّعادة في الآخرة، فقال سبحانه [ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ] [الكهف: 107].

كما وعد بالمغفرة وقبول التوبة لمن آمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، وفي مقابل الإصلاح حذر من الفساد في الأرض، في عدّة آيات، وذكر أنّ الفساد يظهر بالبرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس، وفي هذا بيان لما نشاهده اليوم من

الإضرار بالوسط البيئي والإسراف في التعامل مع البيئة في المنظومة المائية، والغلاف الجويّ وكلاهما من ضرورات حياة جميع الكائنات الحيوانية والنباتية.

### 3. الحفاظ على الغلاف الجوي:

لقد أحاط الباريّ جلّ وعلا هذه الأرض بغلاف من الهواء لا تنتشرح الصدور إلّا به، والله عليم بذات الصدور. ثم علم عبيده تركيبه ووظيفته وخصائصه، فسبحانك اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنّك أنت العزيز الحكيم. ومما علمنا استحالة الحياة دون الهواء.

لقد جعل سبحانه هذا الغلاف طبقات منها ما هو ملتصق بنا على الأرض، ومركب من غاز الحياة المعروف بالأكسجين، وهو الذي يحيي ذماء الحي ويطهر دماءه، ثم بسط فوق طبقة حاجزاً من غاز الأوزون الذي يمتصّ الإشعاعات المنبثقة من الشمس لحماية ساكني الأرض من أشعتها القاتلة ونرى الإشارة إلى هذه الظاهرة في قوله تعالى [ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ] [النحل: 81].

وبما أن سراويل هذا الغلاف التي تقينا من بأس الإنسان الصناعي، ومن حرّ الإشعاعات فوق البنفسجية، هي طبقة الأوزون فإنّ هذه الطبقة قد تخترقها الغازات المضرة، وتحدث فيها ثقباً تتسرّب منها الإشعاعات القاتلة.

وإذا كانت هذه الظواهر مدروسة، ومرصودة من طرف العلماء، فإن التدابير لم تتخذ إلى الآن بصورة مرضية لحماية هذا الغلاف البيئي، نظراً لأنّ أسباب تلوثه مرتبطة بتقدّم الصناعات في البلدان النافذة، والتي لا تقبل بنقص مواردها، ولو كان ذلك على حساب سلامة الأرض، ومحيطها الطبيعي الذي يكفل التوازن البيئي الضروري لحياة البشر على الأرض.

ومن أخطر ما يتعرّض له الهواء كذلك التلويث النّاشئ عن نفايات محطات الطّاقة الذريّة والانفجارات المحتملة مثل ما وقع في تشيرنوبيل سنة 1986م في روسيا، كما يقع دومًا بعد استعمال القنابل النوويّة مثل كارثة هيروشيما، وما نتج عن تجارب الأسلحة النوويّة.

ويعتقد بعض العلماء أن المادّة الكونيّة لا تنقص ولا تزيد وإنما تتحوّل من حال إلى حال؛ وبمقتضى هذه النظريّة، فإنّ مادّة الأكسجين محدودة لا يتغيّر كمّها، ولكنّها قد تنتقل من الماء الذي هو جزء منه إلى الهواء. ولكننا نعرف أنّها قابلة للاشتعال، وأنّها قد تنعدم بعدما تحترق، وأيّ ما كان وضعها فإنّها تتلوّث في الغلاف الجوّي ويؤدّي عدم نقائها إلى مشاكل الأمراض الصدرية النّاجمة عن التّنفس في هواء غير صحّي، وهذا ما يلاحظ في المدن المكتظة بالسكّان، والملينة بالسيّارات التي تنفث دخان ثاني أكسيد الكربون المضرّ بالهواء.

#### 4. صيانة الماء:

رأينا أن غاز الأكسجين من ضرورات بقاء الحياة على الأرض، وهو أيضًا عنصر أساسي في تركيب الماء الذي جعل الله منه كلّ شيء حي [ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ] [النور: 45].

ولقد ورد في السيرة النبويّة، أنّ النبيّ  $\text{p}$  جاء إلى بدر يتحسّس أخبار عير قريش، ومعه أبو بكر فوجدا عند البئر شيخًا فسألهما إلى من ينتميان، فقال له الرسول  $\text{p}$  «نحن قوم من ماء» فصار يتعجّب ويقول: «وما ماء في العرب»، أجل كلّ النّاس من ماء.

والماء من نعم الله التي لا تحصى، وقد منّ به على عباده فقال [ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ] [الواقعة: 68-70]. لقد جعل الله من الماء بحورًا ماؤها أجاجًا تتضمّن سبعة وتسعين في المائة من كمّيّة الماء الموجودة في الأرض والمقدّرة

بنحو ألف وثلاثمائة مليون كم<sup>3</sup>، بينما لا تتجاوز المياه العذبة واحدًا في المائة، وهي في الأنهار السطحية والجوفية، والجليد الموجود في ذرى الجبال وفي قطبي الأرض.

هذا هو الماء الذي لا حياة بدونه، فالإنسان يحتاج إلى 70 في المائة لبدنه، وقد يصبر على الجوع أيامًا، ولكنه لا يحتمل الظمأ إلا لمدة محدودة وقصيرة جدًا، فهو إذا الشرب الذي يروي غلة الأحياء، وهو الذي يحيي الأرض فيخرج منها ما يأكل منه الناس والأنعام، وهو الطهور الذي ينقي الأجسام والأشياء، ولذلك كان من أهم أدوات العبادة في شروط الصلاة.

ومن أطاف الخالق أن جعله وسيلة في التنقل على السفن الجارية عليه، فاستعمله البشر أحقابًا قبل أن يكتشف العالم اليوناني أرخميدس قانون النسبة بين قوة دفع المياه وحجم الأجساد الغائصة فيها ويقول الحق سبحانه [ وَمِنْ آيَاتِهِ أَجْوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٣٢﴾ ] إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِعَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ [ الشورى: 32-34].

ومن أطف صنائع الخالق تحويل ماء المحيط إلى بخار يصعد في الجو وينزل غيثًا على الأرض الميتة [ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ [ الحج: 5].

غير أن المياه مهددة بنفاد ماء الأنهار وتلوث مياه المحيطات، فالجفاف والتصحر في الأرض التي كانت مكيّسة بالغابات، يُنذر بئدرة الأمطار التي هي المورد الطبيعي للأنهار والمياه الجوفية.

ومما تتعرض له البحار التلوث الناشئ عن تدفق النفايات فيها مما يهدد حياة الحيتان المعروف أنها من أهم مصادر إطعام البشر، وقد صارت عمليات استخراج النفط في البحار من أخطر عوامل هذا التلوث ومن أمثلته الصارخة كارثة خليج المكسيك وما أوقعته من دمار المنظومة البيئية في شواطئ أمريكا.

## 5. حماية النباتات:

[ وَتَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٢﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ] [ق: 9- 11]. تدل هذه الآيات وأمثالها على أهمية النباتات في المنظومة البيئية. والنباتات أصناف كثيرة، قدّرها العلماء بمئات الملايين، وفوائدها جمّة، فمنها الزّروع والفواكه التي منحها الله متاعاً للنّاس ومراعي للأنعام ومستقراً آمناً ومغذياً لمختلف الحيوانات. كما تساعد في تصفية الغلاف الجوّي وتثبيت التربة على أديم الأرض، ويحصل الإنسان منها على منافع أخرى كثيرة في مختلف الصناعات يقدرها العلماء بأكثر من 4000 مادة مصنّعة من الأشجار. وهي من أهمّ مصادر الطاقة المتمثلة في الفحم الخالص والملتحم بالماء لتكوين الوقود في الزيوت والهيدروكربونات وفي ظاهرة النّار التي يقول الله جلّ وعلا عنها [ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَعًا لِلْمُقِيمِينَ ] [الواقعة: 71- 73]، كما تعمل على مكافحة الحرّ لمن يحتمي بظلالها مثل ما يقول الشاعر:

وقانا لفحة الرمضاء حماه	مضاعف النبات العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا	ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حاليله	قتلمس جانب العقد النّظيم

العداري

ومن أهم مظاهر النباتات الغابات الكثيفة الموزّعة على القارّات في أمازونيا والمنطقة الاستوائية في إفريقيا وآسيا. لكن هذه الغابات لم تسلم من جشع الطامعين وقوادم المسرفين وعبث المفسدين.

فمن الظواهر المسبّبة للاختلال البيئي، الاستغلال المفرط لهذه الغابات، فصناعة الأخشاب والزراعات الصناعيّة، بدأت تقتلع أشجار هذه الغابات،

وتقطع جذورها فتتقص كمية الأمطار ويتأثر الهواء بخصائص الأكسجين، ممّا يؤدي إلى التصحرّ والجفاف.

## 6. العناية بالحيوانات:

تشكّل الحيوانات جزءاً مهماً من مكونات المنظومة البيئية ويقول عنها الحق سبحانه: [ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ] [النحل: 5]، وهذه المنافع منها ما هو بديهي ومشاهد يومي، مثل ما يعطي بعضها من لبن سائغ للشّاربين، ومن لحم طري رزقاً للأنعام، ومن وسائل نقل غير ملوثة، كالخيول والبغال التي تحمل الأثقال، والجمال الصّبورة التي تعبر الصحاري كالسفن فوق المحيطات.

والأخطار المحدقة بالهواء والمياه تنعكس بالطبع على حياة الحيوان، فالحيوان يحتاج إلى الماء لشربه، وإلى الثّبات لغذائه، وندرة هذين العنصرين ذات تأثير مباشر على وجوده، وهذا ما جعلنا نسمع أن كثيراً من أصنافه أصبحت مهدّدة بالانقراض، حتّى العلماء يلجؤون إلى تدجين بعضها في الحدائق الخاصّة، وهي وسيلة محدودة لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولا شكّ أن للإنسان دور كذلك فيما يلحق بالحيوان، فالإسراف في الصّيد في البحار، واستعمال أسلحة فتاكة في الصّيد البرّي، من الأمور التي تسارع مصائب الحيوان، وفي الأخير سيكون الإنسان هو الخاسر في سلوكه المفرط، وإسرافه في التصرف وفساده في الأرض.

## 7. خاتمة:

لقد كثرت الأنشطة التي تعنى بالبيئة في العالم الإسلامي لكن الملاحظ أن أغلبها ما زال مقتصرًا على أعمال فردية في كلّ دولة على حده. وأنّ جلّها يتمثل في أنشطة حكومية في وزارات أو مصالح مسؤولة عن الحفاظ على البيئة.



أما نشاط المجتمع المدني فإنه لم يزل محدودًا جدًّا، والمحاولات التي تقوم بها منظمات غير حكوميّة لم تصل إلى مستوى التأثير على سلوك المجتمعات من أجل هذا فقد آن الأوان لاتخاذ تدابير جديدة وجديّة، شاملة في تصوّرها.

1. العمل على خلق ثقافة حماية البيئة، وإدماج هذه الثقافة بالعمل التربوي، في نطاق تدريس العلوم في جميع مراحل التعليم، وترسيخ الوعي بالمشاكل الناجمة عن اختلال التوازن الطبيعي للبيئة، وربطها بمقتضيات التعاليم الدينيّة وذلك بإبراز النصوص الصارمة في إدانة الفساد في الأرض، وفي الحفاظ على ما ينفع الناس، ممّا قد يقومّ سلوك العامّة في احترام الحياة الفطريّة، والثروات الطبيعيّة، نتيجة للوعي العلميّ والوازع الدينيّ.

2. إنشاء هيئة إسلاميّة، على غرار "السلم الأخضر" وتكليفها ببذل الجهود على مستوى الدّول الإسلاميّة، وإعطائها الوسائل الماديّة والبشريّة للإسهام الفعّال في الحفاظ على البيئة وتنسيق أعمال الدّول والهيئات المهمّة بهذه القضية.